

الفصل الثانى

البارودى شاعرا

للبارودى شخصيتان شخصية أدبية، وشخصية سياسية أما شخصيته الأدبية فهي خالدة فقد شغف البارودى فى مطلع شبابه بقراءة شعر الأقدمين خاصة شعر الفرسان الذين كانوا يذكرونه بذكرى أجداده الذين حازوا المجد خلال حروبهم ضد الصليبيين والتتار، ونشروا أعلام مصر فى ربوع الشام وجزر البحر المتوسط، فاندفع يختزن فى مخيلته وذكريته كل ما استهواه من أشعار الحماسة والبطولة ، كما تعلق بالشعر عن هوى فاتن أوزانه ونغماته بموسيقية تظهر فى صياغته كما تظهر فى اختياره وكلمه أقبل على القراءة تزداد ملكة الشعر منه قربا، وتملا عليه وجدانه حتى صاغ منه أجمل الألفاظ وأروع العبارات، وترنم بأنغام فى الشعر لم يألها اهل زمانه من الشعراء الذين عاشوا أزمة ضعف الشعر العربى وانحلاله منذ أن احتل العثمانيون مصر ، واعتبروا الشعر تجارة وارتزاقا مما تسبب فى ركود وتدهور الأدب العربى سواء فى الأغراض أو المعانى والأساليب، فكان أبرز معاصريه "محمود فهمى الساعاتى" الذى لا يقول الشعر إلا للتكسب المادى او لاسترضاء الحكام والولاة رغبة فى العطاء والإحسان، وكانت المحسنات البديعية عندهم كل شئ كما كانت الأغراض ضيقة لا تخرج فى جملتها عن المدح أو القول فى المناسبات، وكانت المعانى مبتذلة ساقطة أما الأساليب فكانت تقليدا عن السابقين لكن البارودى استطاع بموهبته ان يقفز قفزة يسمو بها إلى مكان فحول الشعراء الأقدمين

حيث سما بأغراض الشعر، وصاغه في أجمل لفظ وأروع عبارة، فلم يقله التماسا لنيل عطاء أو التماس عطف من حاكم وإنما تغنى به ليضطرب سامعيه مما آثر عجب الناس، وحق لهم ان يعجبوا من هذا الشاعر الملهم الذى نفخ فى الشعر العربى روحا حديثه تمثلت فى نزوعه إلى تصوير الواقع ببساطة وسلاسة وقوة دون اعتماد على المحسنات البديعية ودون إغراق فى الخيال ومهدت السبيل من بعده لمن تابع طريقه أمثال "احمد شوقى" و "حافظ ابراهيم" و "اسماعيل صبرى" وغيرهم.

لقد تغنى البارودى كشاعر مطبوع غير متكلف لاحتساسه ان موهبته الشعرية تفرض عليه التعبير عن العواطف والإحساس التى تمتلأ به نفسه فجاء بأنغام من الشعر لم يألّفها أهل زمانه، ونفخ فيه روحا دفعت به إلى الصدارة وسمت به إلى مكان كبار الشعراء الأولين، فتغنى بمصر وتأمل أمجادها، وحسن ضيافتها لأجداده عندما جاءوها مهاجرين ورفعتهم إلى مكان السيادة مما جعلهم يقدمون أنفسهم فداء لها ثم جاء من بعدهم فرأى نور الحياة بين أهلها، وعرف الدنيا فى جنباتها، حيث وجد نفسه لصيقا بها يرتبط بأرضها وبأهلها ارتباط مصير، ويختلط حبها بلحمه ودمه، وعواطفه وشعوره، وعاش حياته يهتف بها وبكرم أهلها مثل قوله:

سل مصر عنى إن جهلت مكانتى
تخبرك عن شرف وعز أقدم

بلد نشأت مع النبات بأرضها
ولثمت ثغر غديرها المتبسم

فنسيمها روحى ومعدن تربها
جسمى وكوثر نيلها محيا دمي

فإذا نطقت فبالثناء على الذى

أولته من فضل على وأنعم

أهلى بها واحببى وكفى بهم

فخرا ملكت به عنان الأنجم

هى جنة الحسن التى زهراتها

حور المها وهزار أيكتهامى^(١)

وإلى جانب ذلك فقد تحدث البارودى عن الحب وما يفعله فى المحبين
والأحاسيس التى تخامرهم وأفرد للجمال صورا ممتعة فى أشعاره حيث
التقت معانيه مع عواطفه، بعد أن أحب حبا أخذ بمجامع قلبه ، واختلطت
أحاسيه فى نفسه حتى مرض فتضرع إلى محبوبته ان يلقاها حتى لا يتحكم
فيه المرض ، فأنشد شعرا قال فيه:

عليل أنت مسقمه فما لك لا تكلمه

سرى فيه الضنى حتى بدت للعين أعظمه

فلا إن باح تعذره ولا إن ناح ترحمه

ودمعى أنت مرسله وقلبى انت مؤلمه

ولا والله مالى فى الـ هوى ذنب فأعلمه

وروعة الغزل عند البارودى أنه صادر عن قلب يحب، فإذا نعم به سأل
نغما يتدفق سلاسة وجمالا، وإذا عذبه صاغ الألم فى عواطف لاذعة
يمارحها حس دقيق، يصور ذلك كله فى سهولة ويسر، لأنه يصور واقعا
يعيشه ينفذ إلى أعماقه ويتجاوب مع مشاعره.

(١) الهزار ، طائر مغرد .

ويجهر البارودى بحبه ، فيقول :

يلومون أشواقى كأنى ابتدعتها

ولو علموا لاموا الأطباء الجواريا

ومالى ذنب عندهم غير أننى

شدوت فعلمت الحمام الأغانيا

وهل يكتم المرء الهوى وهو شاعر

ويثنى على أعقابهن القوافيا؟

والبارودى فى حبه كان راقيا عفيفا، وكان يتيه بعفته فى حبه، ويراهم مكانا

لفخره، فيعلن رأيه فى اللهو والحب صريحا فى قوله:

وهل فى الصبا واللهو عار على الفتى

إذا العرض لم يندس بأثم ولا بغو

وإلى جانب ذلك الحب فقد كان البارودى مغرما بالطبيعة فوصف سحر

طبيعة مصر، سماؤها ونيلها وربيعها وخريفها ونخيلها وأغابها، كما

وصف طبيعة البلقان وكريت فى قصائد منفصلة خلال حديثه عن الحنين

لمصر التى كان يتذكرها دائما فى غربته وله قصائد عديدة فى وصف

الطبيعة نذكر منها:

سواى بتحنان الأغاريد يطرب

وغيرى بالذات واللهو يلعب

أما عن شعر الفرسان الذى عشقه البارودى فقد تحدث عنه موضحا

شأن الفرسان الذين يضحون بأنفسهم حيث تقوم الحرب ، وتخرج السيوف

من أعمادها، وأنه عندما يحفظ أبياتا تقال عن النخوة والتحدى تهتز نفسه
إلى النظم على وتيرتها.

ويتحدث البارودى ايضا عن المثال الرفيع للفرس العربى أيام حروب
الصليبيين والتتار، ويعيد إلى واقعنا صورته بجميع خطوطها وألوانها،
فتعكس السمو فى شخصيته، والنور الذى يضئ جوانبها.
وإلى جانب ذلك فقد حكى البارودى شعر البداوة وأفرط فى المحاكاة
حتى ذكر الأطلال والرعيان والقبائل فقال قصائد شتى فى هذا المجال
نذكر منها: (١)

غدت وهى مرعى للظباء وطالما

غنت وهى مأوى للحسان العقائل

فللعين منها بعد تزيال أهلها

معارف أطلال كوحى الرسائل

فأسبلت العينان منها بواكف

من الدمع يجرى بعد سح بوابل

ديار التى هاجت على صبابتى

وأغرب بقلبى لا عجات البلايل

من الهيف مقلق الوشاحين غادة

سليمة مجرى الدمع ريا الحلال

إذا ما دنست فوق الفراش لو سنة

جفا خصرها عن ردفها المتخاذل

(١) للمزيد انظر: ديوان البارودى.

تعلقتها فى الحى إذ هى طفلة
وإذا أنا مجلوب إلى وسائلى
فلما استقر الحب فى القلب وانجلت
غيايته هاجت على عواذلى
فيا ليت أن العهد باق وأنا
دوارج فى غفل من العيش حامل
تمر بنا رعيان كل قبيلة
فما منحونا غير نظرة غافل
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً
بعيدا ولم يسمع لنا بطوائل
نسير إذا ما القوم ساروا غدية
إلى كل بهم راتعات وحامل
وإن نحن عدنا بالعشى أفاضنا
إليه سدىل من نقا متقابل
وتستمر القصيدة على هذا النسج المحكم والإجادة البالغة فى معارضة
الأقدمين، إلا قليلا من الهفوات التى قد تدل على تقليد بعضهم والنقل عنهم.
ومن المعروف أن البارودى كان جنديا شجاعا عاملا، قد شهد الحروب
وأبلى فيها البلاء الحسن أكثر من مرة، وكان إلى جانب شجاعته معروفا
بالدهاء والحيلة، وكان على العهد فى رجال الحرب مستخفا بالحياة فى
ميدان القتال محبا للحياة أيام السلم، مفرطا فى حبها والمتعة بها كأنما
يعوض أيام المخاطرة والمغامرة بأيام الراحة والنعمة.

وهذه طبيعة بالجندى المفطور على الجندية، والشجاع المفعم بالنوازع
الفتية، ومن أهمها الأخذ بالقرب الحاضر والبعد عن الإطالة والتعمق
والاستقصاء، فليس من المطلوب من صاحبها ان يتغلغل في التفكير إلى
الدقائق والخفايا وأن يتوسع في الخيال والفلسفة، وإنما اللازم له ان يكون
عند دعوة الإقدام والفخار والقوة، وعند دعوة المرح والغرام والفتوة.
وهكذا كان البارودى فى الحرب كان قد ذكر فى احدى قصائده:
وأصبحت فى أرض يحار بها القطا^(١)

وترهبها الجنان وهى سوارح

بعيدة أقطار الدياميم لو عدا

سليك بها شأوا قضى وهو رازح

تصبح بها الأصداء فى غسق الدجى

صياح الثكالى هيجتها النوائج

تردت بسمور الغمام جبالها

وماجت بتيار السيول البطائح

فأنجأها للكاسرات معاقل

وأغوارها للعاسلات مسارح

وكذلك كانت أشعار البارودى ترجمانا لكل خالجة من خوالج نفسه

الشاعرة، وأثرا من أثار تلك الحياة الباطنة والظاهرة، فليس الذى فى شعره

شجاعة البارودى ومرحه وحسب. بل فيه التفوق البارز فى شعره الذى

ارتقى فى التعبير عما يكتبه .

(١) نوع من الطيور يتعرف على موارد المياه من بعد ويهذى إليها السائرين.

قال البارودي فى مقدمة ديوانه: " إن الشعر لمعة^(١) خيالية يتألق وميضها فى سماؤه^(٢) الفكر فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلائها نورا يتصل خطبه بأسلة اللسان، فينفث بألوان من الحكمة ينبجج بها الحال ك ويهتدى بدليلها السالك. وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلفت معانيه، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سليما من وصمة التكلف بريئا من عشوة التعسف، غنيا من مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد فمن أتاه الله منه حظا وكان كريم الشرائل طاهر النفس فقد ملك أعنة^(٣) القلوب. ونال مودة النفوس وصار بين قومه كالغرة^(٤) فى الجواد الأدهم^(٥) والبدر فى الظلام الأيهم^(٦)، ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق، لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها مسرح وارتبأ الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمح. ومن عجائبه تنافس الناس فيه وتغاير الطباع عليه، وصغو الأسماع إليه، كأنما هو مخلوق من كل نفس أو مطبوع فى كل قلب فأنت ترى الأمم على اختلاف ألسنتهم وتباين أخلاقهم وتعدد مشاربهم، لهجين به عاكفين عليه لا يخلو منه جيل دون جيل، ولا يختص به قبيل دون قبيل. ولا غرو فإنه معرض الصفات ومترج الكمالات... وللشعر رتبة لا يجهلها إلا من جفا^(٧) طبعه، وتبا عن قبول الحكمة سمعه.

(١) لمعة : بريق ولمعان.

(٢) سماؤه: سماء

(٣) الأعنة: سير اللجام الذى تمسك به الحصان.

(٤) الغرة: بياض مستحسن فى جبهة الفرس، والمراد أنه صار مشهورا.

(٥) الأدهم: الأسود.

(٦) الأيهم: الصعب الشديد الحال ك الذى لا يهتدى إليه أحد.

(٧) جفا: غلظ وخشن.

ومعنى ذلك أن الشعر عند البارودى لا يغيره جمال اللفظ، ولا يغيره عن الاهتمام بالمعنى خاصة وأنه وسيلة الحث على مكارم الأخلاق وأداة القوة والغلبة لقائله وخلود الذكر بعد موته، وتلك طريقة فى وصف الحقائق النفسية اتبعتها الشعراء القدامى من قبله.

وقد أكد ذلك بقوله:

إن أشعر بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته صدقا

للشعر فى الدهر حكم لا يغيره

ما بالحوادث من نقض وتغيير

يسمو بقوم ويهوى آخرون به

كالدهر يجرى بميسور ومعسور

فالشعر قد يخلد وقد يوحى بوحى المكارم وغيرها من تعبيرات الجمال.

والبارودى جرى فى ذلك على قول أبى تمام حين قال:

ولم أر كال معروف تدعى حقوقه مغارم فى الأقوام وهى معانم

ولا كالعلا ما لم ير الشعر بينها فكالأرض غفلا ليس فيها معالم

ولولا خلال سننها الشعر مادرى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

وتلك طريقة القدماء عامة فى تعظيم قدر الشعر والإشادة بفضلته على

قائله والمقول فيه:

وإنما الشعر لب المرء^(١) يعرضه

على المجالس إن كيسا وإن حمقا

وربما كانت محاكاة البارودى للأقدمين كما يذكر الأستاذ العقاد هى أنفع

ما فى شعره للأدب المصرى الحديث، لأنه رد إلى المعاصرين يقين القدرة

(١) لب المرء: عقله والمراد أن الشعر يدل على عقل الشاعر ووجدانه وثقافته وتجاربه وذوقه.

على مجازاة العباسيين والمخضرمين والجاهليين فى ميدان اللغة والتركيب بما أتقن من معارضتهم فى المذهب والأساليب، وليس أدعى عن هذه الثقة إلى الابتكار والاستقلال والاعتماد على النفس والبعد عن قيود التقليد، فإذنا حسبنا للبارودى سلفيته المستقلة "وشخصيته" المعبرة، ونزعته إلى الاعتراف بحق العصر على الشاعر، فلا ننسى أن نحسب له جودة التقليد ما استتبعه من حسن الثقة وعزيمة النهضة.

وللبارودى بعد هذه الآية آية أخرى: هى أن الفضل الذى له على عصره أكبر من الفضل الذى لعصره عليه . فما جاء من عند نفسه كثير لا يقاس إليه ما يجئ من قدرة معاصريه، وذلك وحده خليف أن يبوئه زعامة جيله ويقدمه إلى طليعة معاصريه وتابعيه.

وهكذا قارن العقاد بين شعر القدماء والمحدثين موضحا دور البارودى فى محاكاة الأقدمين تارة وفى الاعتماد على النفس ومواكبة روح العصر. لقد ساعدت البيئة المصرية الجانب التصويرى من أشعار البارودى فتحدث عن النهضة التى حدثت فى مصر خلال عصر اسماعيل بعد فترة الجمود التى تعرضت لها فى عهد سلفيه عباس الأول وسعيد متمنيا أن تسير مصر مراحل نهضتها، وأن تكون القاهرة باريس الشرق، وقد أخذت قصائده تتناقل فى الأوساط الأدبية، فرأى فيها الشعراء شيئا غير ما عرفوه فى عصرهم ووجدوا فيها بعثا جديدا للماضى المجيد الذى ظنوه ذهب ولن يعود، وعرفوا فى شعره الأصالة التى أصبحت حديث الأدياء فى مجالهم ، ورواية الشعراء فى مجامعهم وهم لا يكادون يصدقون أن هذا شعر ينشده شاعر يعيش بينهم ، ويبعث الشعر العربى بعثا جديدا، وقد أكد البارودى ذلك فى أشعاره بقوله:

أحييت أنفاس القريض بمنطقي

وصرعت فرسان العجاج بلهزمي

وفجرت ينبوع البيان بمنطق

عذب رويت به غليل الحوم^(١)

نشأت بطبعي للقريض بدائع

ليست بنحلة^(٢) شاعر متقدم

يصبو بها الحكمى صبوة عاشق

وتخف من طرب عريكة مسلم^(٣)

قومته بعد اعوجاج قناته

والرمح ليس يروق غير مقوم

شعر جمعت به ضروب محاسن

لم تجتمع قبلى لحى ملهم

أما عن شعر الحنين إلى الوطن عند البارودي فقد ظهر عندما شارك في حرب كريت والبلقان وازداد هذا الحنين خلال فترة نفيه في سيلان حيث قضى هناك فترة ليست بالقصيرة وكانت ربة الشعر نعم العزاء حيث مدت إليه قيثارتها، فصور الوطن أروع صورة انخرط خلالها في الأسى وفي الألم وتتداعى الذكريات، فيخرجها صورا من شعره ، ومزيجا من عواطفه فقد كان مغيبه عن مصر بغير اختيار منه سواء أثناء المعارك

(١) الحوم : العطشى.

(٢) النحلة: الدعوى.

(٣) الحكمى. أبو نواس، الحسن بن هانى بن عبد الله بن صباح (٧٦٢-٨١٣) =

ومسلم : مسلم بن الوليد الأنصارى (صريع الغواني) شاعر عباسى (٧٤٧-٨٢٣م).

التي خاضها فى كريت والبلقان أو إبان النفى فقال فى حرب كريت التي دارت رحاها بين الدولة العثمانية وثور الجزيرة المتمردين وقد بعث الخديوي اسماعيل بنجدة عسكرية كان البارودى من ضباطها .

سرى البرق مصريا فأرقتنى وحدى

وأذكرنى ما لست انساه من عهد

يضاف إلى ذلك فإننا نلاحظ فى شعره الغرام بمصر وحبه لمعاهد الصبا ومواطن الذكريات فيها ظهر مبكرا فى شعره ، ولم يكن وليد محنة الحروب التي خاضها خارج مصر، ولا وليد محنة النفى وحدها. وقد عبر عنه فى جميع تلك الأحوال. ومن ذلك قصيدته الرائعة التي مطلعها:

ترحل من وادى الأراكة بالوجد فبات سقيما لا يعيد ولا يبدي

سقيما تظل العائدات حوانيا عليه بإشفاق وإن كان لا يجدى

وفيهما بعد شكوى الوحدة والغربة وصف الليل وطوله، ووصف للسيف ومناجاته، وهيام بمعاهد الصبا فى الروضة، وفخر بشجاعته وفدائيته وشعره وتذكر لهوى نفسه فى الصبا. والواقع أن كل تلك الأغراض تضرب فى أعماق الرومانسية والتي نعرض منها لبعض أبيات من مناجاته السيف إذ يقول:

ولا صاحب غير الحسام منوطة حمائله منى على عاتق صلد

إذا حركته راحتى لملمة تطلع نحوى يشرئب من الغمد

أشد مضاء من فوادی على العدا وأبطأ فى نصرى على الشوق من فند

أقول له والجفن يكسو نجاده دموعا كمرفض الجمان من العقد

لقد كنت لى عوناً على الدهر مرة فما لى أراك اليوم منتلماً الحد؟
فقال: إذا لم تستطع سورة الهوى وأنت جليد القوم، ما أنا بالجلد
وهل أنا إلا شقة من حديدة ألح عليها القين بالطرق والحد؟
فما كنت لولا أننى واهن القوى أعلق فى خيط، وأحبس فى جلد
فدونك غيرى، فاستعنه على الجوى ودعنى من الشكوى، فداء الهوى يعدى
إنها إذن وحدة الفارس المقدام الذى حكم عليه بمغادرة الميدان فقعد
محسوراً لا أنيس له إلا السيف الذى جمعته به المعارك الخالية، فإذا به
يناجيه. وإنما يثنى الشاعر على نفسه ضمناً لأنه لا يحمل مثل هذا
الصمصام إلا جندى قوى ذو عاتق صلد . والسيف خير مؤنس لشاعرنا،
فهو يستشعر حركة يده، فيتطلع نحوه مطلاً من غمده، وهل ثمة أقصد من
هذا التعبير وأدل على علاقة الود بينهما؟ أنضع هذا الشعر التشخيصى
الجميل فى مصاف الشعر التقليدى ونكون قانعين راضين؟ ولفرط إحساسه
بالسيف فإنه يفضل على فؤاده، إذ يسبقه فى الذود عنه ضد الأعداء، ولكنه
يخذله أمام الشوق، فالشوق إذن أعتى عدو يستعصى على الحسام الذى
يبدو ثقيلًا مثل الجبل فى حال الهوى. ونلاحظ هنا التضاد بين موقف
العشق وموقف الحرب، وهما لا يجتمعان على هذا النحو الفريد إلا فى
شعر البارودى. وهذا التميز الفارق عادة ما يتم التغاضى عنه لدى تصنيف
شعر البارودى. إذ يوضع فى قائمة الشعر التقليدى وكفى! وهذا بخس
لقيمته عظيم. ولا يكتفى شاعرنا بكل هذا بل يشرع فى الحوار مع السيف
حواراً فريداً فى شعرنا العربى ، والدموع تناسب من عينيه (عيني السيف)

مثل الجمان أى اللألى الفضية. إن السيف إذن لييكى، وإن دموحه مثل
الجمان المتطاير حين ينفرط عقده ، فهى تنساب من جفن السيف مما يعن
فى تفصيل الخيال ، لزيادة فى توضيح المعنى. فالشاعر يسلك سبيل الخيال
للتعبير عن وجدانه الذى هو فى الواقع فكر حى مائج بالحركة. (١) ويتبع
شاعرنا آيات الإبداع هذه برد السيف الذى يعد نموذجاً يحتذيه الرومانسيون
فى كل عصر مصداقاً لقول البارودى عن شعره:
ولا تعجب من منطقى إن تأرجت

به كل أرض فهو ربحانة العصر
وعلى عهد البارودى خلال عصر اسماعيل وتوفيق كان بالقاهرة
صالونات للأدباء، ومجالس للفقهاء، ومجتمعات للظرفاء أو للمفنيين،
وندوات خاصة يجتمع فيها رجال الفكر والعلم وعشاق الأدب. وكانت ندوة
البارودى الأدبية تعتبر فى القمة من هذه المجالس، يعقدها فى داره " بباب
الخلق" ويحضرها صفوة القوم من الشعراء والعلماء وعشاق الأدب والعلم،
ومن هؤلاء: الشيخ حسين المرصى ، والسيد على ابو النعمر، وعلى
الليثى، ومحمود صفوت الساعانى، والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب،
ومحمد سعيد بن جعفر مظهر الشاعر الثائر، وشيخ الأدباء عبد الله فكرى ،
وأحمد وهبى الشاعر " الطرابيشى" والشيخ محمد عبده، وفيها أمهات الكتب
الأدبية تقرأ، ودواوين الفحول من شعراء العربية. (٢)

(١) للتفاصيل أنظر: فايز على: محمود سامى البارودى شاعر الرومانسية.

(٢) للتفاصيل أنظر: على الحيدى: محمود سامى البارودى.

واستمرت الأحوال على ذلك المنوال حتى تطورت الأمور، والتهب لهيب الثورة العربية فانشغل البارودى عن الأدب ، وتفرغ للمشاركة مع زملائه من قادة الثورة، يفكرون فى أوضاع البلاد ومواقف الخديوي المؤدية للانجليز، حتى انتهى الأمر بالغزو الانجليزى لمصر عام ١٨٨٢. وبعد هزيمة الثورة العربية ونفى البارودى إلى سيلان لم يجد من يبث شكواه إليه سوى ربة الشعر فكانت نعم العزاء حيث ألهمته أبياتها وساعده فى ذلك ذاتيته القوية فأبدع وأجاد فى ديوانه من الشعر السياسى، ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار القديمة والحياة المصرية، واتجه بالشعر العربى وجهة جديدة برزت فيها شخصيته، وبدأ شعره مرآة لبيئته وزمانه، فقال الشعر مخلصا محبا إياه، لا يبتغى سوى إرضاء نفسه وفنه وهذا الإيمان بالشعر هو الذى ألهمه الصبر خلال فترة النفى ، بعد أن يؤس من العودة إلى وطنه ، وأبت عليه نفسه أن يضعف ومن ذلك قوله :

وإنى امرؤ لا أستكين لصولة

وأن شد ساقى دون مسعاى قده

وطال به النفى سبعة عشر عاما وشهورا أبدع خلالها أشعارا خلع عليها من الجلال والجمال ما رد إليها قوتها ، وإلى اللغة العربية بلاغتها.

وهكذا اتضحت شخصية البارودى الشعرية وإيمانه بقيمة الشعر بل بضرورته للحياة الإنسانية ، وبدأ شعره كمرآة لبيئته وزمانه ، فقد بعث الشعر العربى واللغة العربية من مرقدتها ورد إليهما الحياة مما وضعه فى مصاف كبار الشعراء خاصة وإن رسالته لم تكن تجديد الشعر العربى فحسب بل كانت بعثه من مرقدته والارتفاع به بلا تدرج ولا تمهيد حيث

انفرد بالريادة والسمو، وكان خلال ذلك مخلصا للشعر ، محبا له لا يبتغى به إلا رضا نفسه مؤمنا بأنه وسيلته إلى الخلود فى ضمير الأجيال. وحسب البارودى أن ديوانه آية لمجده ، وتراث للأجيال بعده، فهذا الديوان يمثل عبقرية خالدة بعثت فى العربية خلقا جديدا أعاد الحياة للشعر المعاصر بعد أن أضعفه العصر التركى العثمانى، فكان البارودى بذلك أول رواد الشعر فى العصر الحديث ، واستحق بحق أن يطلق عليه شاعر الرومانسية.